مع شاعرة «من الأعماق»

للاستاذ عبد المحسن الحكيم

الشعر الآن غيره قبل حين — حيث كان لا يطلب منه إلا أن يسمو في اللفظ أو في المعنى على اختلاف في فهم الشعر ووظيفته. أما الآن فإن أهم وظائفه أن يصدق في نقل أحاسيس الشاعر وتأثره بالتجارب الشعورية التي تفيض بها الحياة ... وأحسب أن الشعر بلغ منتهاه من التطور — حين تحرر من سلطان اللفظ وسلطان المعنى الذي لم يكن للشاعر به عهد — وإنما هو تخيره من بين المعاني لأن غيره من قراء الشعر يستجيب به ويدهش له، وحين قدرته أن يكون وقفاً على صاحبه ... يمرض دقات قلبه لوجه جميل، وحركات شعوره لمنظر جميل أو منظر قاتم — تمثله الحيوات التي يحياها مواطنوه.

وجميل أن يطلب[1] من الشعر أن يكون نتيجة إحساس .. قبل أن يكون نتيجة فكرة .. تعرض على أنها حكمة خالدة أبدية.. فهو إذ ذاك يكون شعراً .. وشعراً فقط — لا منبراً لوعظ وإرشاد وتنبيه إلى الحقائق.

(١) الطلب فيما أذكر للاستاذ سيد قطب

وإن هذا الذي قرأته في عدد سالف من الرسالة، الآنسة الفاضلة والطوقة، لهو شعر حقاً .. يمتح من الإحساس ويصدر عنه — كما لو لم يكن غيره مصدراً لشعر في القديم والحديث.

وليس أصدق في نقل الأحاسيس إلى لغة الشعر من قول الآنسة الفاضلة تملن وحدتها — وهي إذ ذاك تقطع مفاوز الحياة دون أن تلقى بين يديها من يؤنس وحشتها ويشعرها أن الحياة غير الملل والصمت والظلام — لم تلف بين يديها هذا الإنسان — وإذا الحياة عندها .. تيه معمى .. ليس فيه غير ظلام مطبق وملل وسأم ووحشة فهي تقول:

سرت وحدي في غربة السمر؛ في التيه المعمى، تيه الحياة السحيق
لا أرى غاية لسيري ولا أبصر قصداً يوفي إليه ... طريق
ملل في صميم روحي منساب، وفيض من الظلام الدفوق
وأنا في توحشي تنفض الحيرة حولي أشباح رعب عميق

سرت وحدي في التيه، لا قلب يهتز صدى خفقة لقلبي الوحيد
سرت وحدي لا وقع خطاو سوى خطوي على المجهول المخوف البعيد
لا رفيق، لا صاحب، لا دليل غير يأسي ووحدتي وشرودي
وجود الحياة يمشي على عمري ظل العناء ... ظل الهمود

والإحساس الكبير هنا تتوزعه جميع هذه الأبيات .. ولكنه يظهر في بعضها بصورة أكبر .. تكاد لا تملك نفسك من الإعجاب بها ... وقد لا تظفر مني أكبر قطعة موسيقية أو أبلغ

والآراء الحديثة. وقد ذكرنا ذلك بقول جلادستون (لن يمكن للشيوعية الاشتراكية إذا قدر لها أن تكون في هذه البلاد غير حزب الأحرار). وهربرت سبنسر كان يرى أن الاشتراكية ربيبة الأحرار أيضاً.

إني أرجو أن يكون في إزالة إله المال عن عرشه، بعد أن أصبح سفر اليدين، بعض النفع للطبقات التي هي خليقة بذلك وكانت وكانت محرومة. إن كل ما يطلب هو إزالة ويلات الحرب، وليس ذلك — في اعتقادي — بعزيز. ومن يدري فلعلنا في مطلع عصر مظلم رهيب. حينما يوجد الأمل توجد الحياة. والعرب لم يفقد آماله. إننا نجتاز أعظم كارثة حلت بالبشرية، ولكن كل بعد — ما لم يكن مدمراً — يترك رد فعل. وقد يرهنا على أن في استطاعتنا احتمال الآلام دون مخض أو تذمر أو تراجع.

ليكن هذا كل ما أريد قوله. لقد علمتني الحياة ما كنت خليقاً بتعلمه منها. لقد كنت طموحاً، ولا أذكر أنني قلت أو كتبت أي شيء لا يرضى عنه ضميري، في سبيل إرضاء الآخرين.

يقول الناس عني إنني كنت كثير الحركة، وكثير الحركة تتوارى وراء روحه الثورة. إن الناجح في الحياة هو ذلك الذي يطفو على ماء نهر الوجود كالكتاب الميت؛ يتملق صاحبه وكأنه ينبض بالحياة. إن الصرخات التي لا معنى لها اليوم ليست إلا صدى أحلام الأمس غير البعيد.

آمل أن يكون جزائي ما كنت أحمله في عواطفي من الصدق، ذلك الصدق الذي لم أستطع خدمة بلادي به إلا قليلا.

(بغداد) علي محمد سرطاوي

(الرسالة) تلك تجاوب رجل من رجال الدين المسيحي؛ فهل يكون للإسلام رجال كهذا الرجل في سعة اطلاعه وطول باعه وحرية رأيه؟

لوجة وجدانية من الإيحاء ما ظفرت به بعض التعابير هنا — في هذه الأبيات — من ذلك مثلاً . «غربة العمر» «التيه المعمى» «جمود الحياة» . فإن الإحساس الكبير في مثل موقف الشاعرة لا بد أن يعبر عن نفسه بمثل هذه التعابير .. لأنه صادق ولأنه بعد ذلك عميق فائض نفاذ .

وموقف آخر ... هو أيضاً جميل ، يشيع فيه الإحساس باللحظة الكبيرة — التي تغمر الشاعرة — ولكنه لا يظهر بالتعبير عن نفسه وإنما بالعجز عن ذلك . وهو ما أسميه بـ«عي الإحساس» وعندي أن الذي ليس وقفاً على اللسان فهو كذلك يصيب الإحساس كما يصيب اللسان على السواء ... وذلك في المواقف الكبيرة التي تضيق بها التعابير ويضيق بها الإحساس نفسه — والشاعرة المجيدة حين تقول :

والتقينا — لم أدر أي قوى سا قتك حتى عبرت درب حياتي
كيف كان اللقاء؟ من ذا هدى خطوك ؟ كيف انبعثت في طرقاتي ؟
لست أدري ، لكن رأيتك روحاً يوقظ الشوق في مساربي ذاتي
ويذرّي الرماد عن روحي الخابي ، ويذكي ناري ، ويحيي مواتي

وحين تشيع الاستفهامات — لأن اللحظة كبيرة غمرت الإحساس بفيضها ، وهب هو منها حتى ارتوى ، وزاد بعد ذلك من اللحظة كثيراً — لم يحتوه الإحساس ولم يغمر — فضاق وعجز — وعبر عن هذا الضيق والعجز بهذه الاستفهامات الكثيرة في الأبيات القليلة — وما ذاك إلا لأن الموقف كبير — وكبير جداً — فلتتصور فتاة هائمة — قد أعياها البحث عن الشريك الذي يزيل لهفتها ، ويريها الحياة كما هي لا من وراء الوحشة والوحدة — تعبر هذه الفتاة الهائمة تعبر الدروب وتجتاز المتاوز حائرة يائسة — وإذا هناك في بعض الدروب ألفته — أجل ألفته — عن غير قصد ولا سابق وعد أو انتظار — فسوف تدرك سر الاستفهام وجلاله وروعته — وسوف تدرك أن الشاعرة كانت تعوم حينذاك في السماوات — تبحث فيما عن الصورة التي تمثل هذا المشهد المفاجيء تمام التمثيل — بعد أن فتشت عنه في الأرض — وحين لم تلقه هناك — ألقت حيرتها في الاستفهام وهي تدري أن قصاراها في هذا الموقف هو الاستفهام الذي يبدي عجزها ، في الموقف وبعده .

ولا يفوتني أن أدل على تعبير جميل تريد به الشاعرة الفاضلة مفاجأة اللقاء — هو « كيف انبعثت في طرقاتي » — أرأيت المشاهد كيف تتوالى عليك ؟ — مشهد الفتاة الهائمة في الطرقات — ومشهد الطرقات وهي تتراءى من الحبيب ، ثم مشهد الحبيب وقد انبعث على غرة من الهائمة — ومشهدها هي وقد فاجأها اللقاء — هذه المشاهد التي توحيها كلمات « كيف انبعثت في طرقاتي » مصدرها قوة تكمن في قلب الشاعرة النابض — ومصدرها كذلك حاسة فنية عميقة .

ولأعبر ثلاثة أدوار من قصيدة « من الأعماق » لأقف قليلاً عند قولها البليغ :

ومضت بي الأيام ، لا أنا صرحت ، ولا لهفتي الحبيبة تبدو
كم وكم راح يحتوينا مكان وأنا صبوة توارت — ووجد
كم حديث حدثتني ! كم قصيد هز روحي وأنت تروي وتشدو
ولقلبي السعيد شيء كعنف الموج ، يطغى تياره — وتعد

والبلاغة هنا تعني مطابقة الإحساس .. يضاف إليها الحاسة الفنية التي لا تكاد تلتقط بلحظة حياة .. حتى تحيلها إلى حياة بعيدة المدى شديدة الإيحاء .. وأحب للقارئ أن يقف على هذا البيت بصورة خاصة :

كم وكم راح يحتوينا مكان وأنا صبوة توارت .. ووجد

ثم يلمس بنفسه جمال الصورة التي توحيها هذه الألفاظ .. وليتذكر القارئ أبداً أنه أمام ألفاظ لا قطعة موسيقية ولا تمثال جميل .

وهكذا تسير قصيدة « من الأعماق » .. إحساس شديد صادق .. وحاسة فنية قوية .. وتعبير جميل موح .. وروح بعد ذلك كله شاعرة طليقة .. وإن بدت أنها مقيدة إلى الأرض بأكثر من قيد .

وإني لأشبه الآنسة المطوقة .. بالشاعرة العراقية المجيدة «نازك الملائكة» .. فقد كانت الشاعرة العراقية دائمة الشكوى من الحياة شديدة التذمر من أسبابها .. أما الآن فقد عطفها إلى الحياة طبيعة عريقة لا يمكن أن تفلت منها مهما حاولت ذلك .. وعلى أي حال .. فإني أريد قبل أن أفارق القارئ أن أطوف معه خاتمة